

توصيل المعنى، وأن ثمة علاقةً بين الذات والموضوع والفكر والواقع، وعلاقةً بين ما يقال وكيف يقال، وعلاقةً بين الدال والمدلول بتأكيد انفصالهما واتصالهما في الوقت نفسه. ولذا فالهجوم على اللغة كأداة توصيل، وعلى علاقة الدال بالمدلول، هو - كما أسلفنا - هجوم على المشروع الإنساني بأسره، وعلى مفهوم الإنسانية المشتركة، وعلى مقدرة الإنسان أن يتعامل مع الآخرين من خلال منظومات معرفية وأخلاقية مشتركة وأن يتجاوز الطبيعة/ المادة.

ويُعدُّ فرديناند دي سوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣) من أوائل المفكرين اللغويين الذين تناولوا هذه الإشكالية. فهو يذهب إلى أن علاقة الدال بالمدلول لا تستند إلى أية صفات موضوعية كامنة في الدال، وبالتالي فالعلاقة بين الدال والمدلول ليست ضرورية أو جوهرية أو ثابتة، فهي علاقة اعتباطية أو عشوائية. فلا يوجد أي سبب منطقي أو موضوعي لأن تكون كلمة «قطة» العربية، أو كلمة «كات» cat الإنجليزية، هي الإشارة الوحيدة (الضرورية والمنطقية) إلى هذا الحيوان الصغير الذي يشبه الأسد، ويسير على أربع، ويغطي جسده نوع من الفراء.

ويرى دي سوسير أن النظام اللغوي هو نسق إشاري مبني على علاقة الاختلاف بين الثنائيات المتعارضة. فالاختلاف بين «قطة» و«بطة» ليس هو الاختلاف بين الحيوان الذي يحمل ذلك الاسم والطائر الذي يحمل ذلك الاسم، وإنما هو اختلاف بين الأصوات والإشارات الدالة (بين القاف والباء)، تقابلها اختلافات بين الأفكار والأشياء (المدلولات)، دون أن تكون هناك علاقة ضرورية (تستند إلى قانون «طبيعي» كامن في طبيعة الأشياء [أنطولوجي أو رباني]) بين الاختلافات القائمة بين الثنائيات في عالم الدوال من جهة، والاختلافات القائمة بين المدلولات من جهة أخرى. فاللغة نظام من العلاقات والاختلافات الثنائية المتعارضة، ليس لأجزائها هوية أو جوهر، أو حتى وجودٌ خارجها.

الكلمات، إذن، توجد داخل شبكة الاختلافات اللامتناهية، ومعنى الإشارة ينبع من اختلافها مع إشارة أخرى، والنظام اللغوي ككل يعمل من خلال سلسلة